الأندلس: تفاعل وتجديد 711–2011

الدار البيضاء (المغرب): 11–12 مايو 2011

حسن بوتكى* منجد مصطفى بهجت**

شهدت رحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية في عين الشق بالدار البيضاء بالمغرب يومي 11 و12 مايو 2011 ندوة دولية احتفاء بمرور ثلاثة عشر قرناً على عبور الثقافة العربية الإسلامية إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، نظمتها شعبتا اللغة الإسبانية وآدابها واللغة العربية وآدابها بالكلية بالتعاون مع كل من معهد ثيربانتيس الإسباني بالدار البيضاء، والجامعة الدولية الأندلسية. وقد تدارس المشاركون جوانب مختلفة من الثقافة الإسلامية بالأندلس، ووقفوا عند مظاهر التعايش السلمي والتلاقح الحضاري الذي شكلت الأندلس على مدى التاريخ نموذجه الساطع. فبعد الكلمات الافتتاحية لكل من رئيس جامعة الحسن الثاني، ورئيس الجامعة الدولية الأندلسية، ومديرة معهد ثيربانتيس، وعميد كلية الآداب، ورئيسي الشعبتين المنظمتين للندوة، انطلقت أعمال الندوة بمحاضرتين افتتاحيتين ترأس جلستهما فيصل الشرايبي رئيس شعبة اللغة العربية بالكلية: الأولى ألقاها عبد الحق المريني مؤرخ المملكة المغربية في شأن الأندلس وإشعاعها خارج حدودها الجغرافيا والتاريخية. وقد توقف في محاضرته عند دلالات الأندلس بوصفها فضاء وزماناً تجاوزا حدودهما، وكان تأثيرهما الثقافي والعلمي

* رئيس شعبة اللغة الإسبانية، كلية الآداب، جامعة الحسن الثاني، البريد الإلكتروني: habouk@gmail.com

** الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا، البريد الإلكتروني: munjid@iium.edu.my

واضحاً في الشرق والغرب على حد سواء، ومثّل المحاضر لذلك من التاريخ والشعر والفنون والثقافة عامة. ألقت المحاضرة الثانية باللغة الإسبانية ماريا خيسوس بيغيرا، وهي أستاذة بشعبة اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة كومبلوتينسي بمدريد متخصصة في الدراسات العربية الأندلسية. وقد ركزت في عرضها على العلاقة التي كانت بين اللغة العربية واللغة اللاتينية قبل أن تنشأ اللغات الرومنسية التي تفرعت عن هذه الأخيرة ومنها القشتالية (الإسبانية) والبرتغالية والقطلونية والغاليسية والفرنسية والرومانية وغيرها.

وخصصت الجلسة المسائية من اليوم الأول لمحور التفاعل الحضاري والثقافي، أدارها حسن بوتكي رئيس شعبة الإسبانية في الكلية، وألقيت فيها عروض أعادت طرح فتح موضوع الأندلس وما صاحبه من إشكالات تاريخية. وقدم العرض الأول خوان مارطوس كيسادا، من جامعة كومبلوتينسي بمدريد، الذي توقف عند سنة 711م التي تعد بداية حقبة أساسية في تاريخ أوروبة، امتدت طيلة تسعة قرون حتى سنة 1609 تاريخ طرد آخر موريسكي بإسبانيا. وعاد إلى القراءات التاريخية المتعددة لهذا الفعل التاريخي الذي انقسم حوله المؤرخون الإسبان بين معترف بالدور الفعال للمكون العربي الإسلامي في تكوين الشخصية الإسبانية ومنكر جاحد لما يمكن أن يكون الحضور العربي الإسلامي قد قدمه لهذه الشخصية التي هي، شاءت أم أبت، مختلفة عن الشخصية الأوروبية، بفعل هذا الظرف التاريخي الخاص الذي عاشته. وهذه المدرسة الأخيرة يتزعمها المؤرخ سانتشيث ألبورنوث ولا زالت لها امتدادات في وقتنا الحاضر. كما ربط المحاضر دلالات هذا التاريخ بالتوجهات والقراءات الحديثة مشيرا إلى أن هناك في إسبانيا اليوم من لا يزال يردد هذه الأطروحة، ولمح إلى المواقف السياسية التي تبناها الحزب الشعبي الإسباني كلما تعلق الأمر بحدث يخص المغرب. أما العرض الثاني فكان لفدوى الهزيتي، وهي أستاذة تاريخ الموريسكيين بشعبة الإسبانية بكلية الآداب عين الشق، وقد تناولت فيه نظرة وتفسير الأندلسيين المتأخرين أو

الموريسكيين لمسألة سقوط الأندلس. وترى أن الموريسكي لم يصدّق نكبة سقوط الأندلس نظرا لما تلاها من تعذيب وتنكيل وطمس لهويته العربية الإسلامية فقد حكم على الموريسكيين، كما هو معلوم، بإلغاء هويتهم إن هم أرادوا البقاء والعيش في بلاد كانت موطنهم الأم. لذلك فهم كانوا دائما يتوقون إلى فتح آخر للأندلس بعد سقوطها، وكانوا دائما يعيشون على حلم أن يعاد فتح الأندلس على يد الأتراك.

في العرض الثالث توقف رفائل بالينثيا، من جامعة إشبيلية بإسبانيا، عند مصطلح فتح الأندلس وقدم نموذجاً لذلك بفتح غرب الأندلس وكيف بدأت تتكون المراكز المسيرة العربية هناك. وقد ركز الباحث على تاريخ مدينته إشبيلية في الحقب الأولى لفتح الأندلس وكيف تطور الحكم بها إلى أن صارت أحد معاقل الحكم العربي في الأندلس.

أما سها عبود، وهي أيضًا من جامعة كومبلوتينسي بمدريد، فقد انطلقت من تاريخ سوريا – الشام – وما تميزت به من عناية خاصة منذ أيام الحكم النبوي وحكم الخلفاء الراشدين وكيف أن الأمويين انطلقوا من دمشق إلى قرطبة وكانوا فعلا صنّاع فتح الأندلس.

أما الباحث بيرخيليو مارتينيث إنامورادو، الذي قدم من جامعة مالقة، فقد ركز عرضه على دور البربر في شبه الجزيرة الإيبيرية وبين حضورهم بشبه الجزيرة الإيبيرية حتى قبل الفتح. كما ذكر بالدور التاريخي المهم الذي قام به هؤلاء السكان الأصليون لشمال إفريقية في فتح الأندلس والتهميش الذي طالهم من طرف المصادر التاريخية نظرًا لأن هذه الأخيرة كانت تحرر من طرف الطبقة الحاكمة التي كانت تتشكل، في غالبيتها، من العرب. واختتمت جلسة محو التفاعل التاريخي والحضاري بعرض شيق للطيب بياض من شعبة التاريخ بكلية الآداب عين الشق، تطرق فيه لتمثل الأنا والآخر في رحلتي سفيرين مغربيين إلى إسبانيا هما الغساني وابن عثمان. وبين الباحث في عرضه كيف أن السفيرين المغربيين كانا يخضعان ما كانا يريانه من مظاهر ثقافية مختلفة عن ثقافتهما في إسبانيا إلى مقاييس دينية واعتبارات سوسيوثقافية تخص المجتمع

المغربي وكانا يصدران أحيانا أحكاما قاسية في حق هذه الثقافة المختلفة.

في محور التفاعل الثقافي والأدبي، الذي كان موضوع الجلسة الصباحية لليوم الثاني، التي ترأسها محمد أبريغاش من جامعة ابن زهر بأكادير، تطرقت العروض لمواضيع في الطبخ والجمالي والعمران والأدب. وكان العرض الأول للبرتغالية إسابيل درورموند براغا، من جامعة لشبونة، ألقاه بالنيابة عنها الأستاذ المترجم سعيد بن عبد الواحد، حول التأثير العربي في المطبخ البرتغالي. وقد بينت فيه الأستاذة، بالأمثلة، كيف استفاد المطبخ والذوق البرتغالي من أنواع الخضر والفواكه التي حملها العرب إلى الأندلس وكيف نقلت الكثير من طرق الطبخ والعديد من الأطباق العربية إلى المطبخ البرتغالي بفعل التعايش مع العرب أثناء الحقبة الأندلسية.

أما مولاي أحمد الكامون، من جامعة محمد الأول بوجدة، فقد قدم عرضا رائعا حول تأثير جمالية قرطبة في فن الباروك الإسباني. واستدل بأقوال العديد من الفنانين والشعراء والدارسين مثل الشاعر الإسباني الكبير فدريكو كارسيا لوركا الذي أشار مرة إلى أن قصر الحمراء بغرناطة يعد المدرسة الفنية الأساسية لجنوب إسبانيا سواء على مستوى العمارة أو مستوى التشكيل أو الأدب، لكونه مصدرًا مهما للإلهام والإبداع. كما يعترف المستعرب الغرناطي كذلك، إميليو كَارسيا كَوميث أنه لو لم يقف عدد عجائب الدنيا عند الرقم السحري سبعة لكانت الحمراء بحق الأعجوبة الثامنة لأنها من الآثار الإسلامية الفريدة التي ظلت صامدة منذ القرون الوسطى على الرغم من هشاشتها وتعرضها لقسوة الطبيعة والبشر. وقد بين الباحث كيف أثرت غرناطة بسحرها المتنوع حول حقبة الباروك التي تعد من أغنى فترات الإبداع الفني والجمالي الإسباني.

وفي العرض الثالث، حمل الباحث أنطونيو ياغونو روخاس، من جامعة مالقة بإسبانيا، الحاضرين إلى مدينة تومبوكتو بحوض النيجر للتوقف عند تأثير العمارة الأندلسية في هذه المنطقة. وقد بين المحاضر كيف أن الحضارة الأندلسية انتقلت إلى حوض النيجر عبر المغرب بفضل الحركات التجارية التي كانت تعبر من هنا والتي كانت تركز أساسا

على تجارة الرقيق والذهب والملح. وقد قدم الأستاذ، وهو نائب رئيس مؤسسة كاتي بتومبوكتو، نماذج وأمثلة عن هذا الحضور الأندلسي في حوض النيجر. أما رجاء داكر، من شعبة الإسبانية بالكلية، فقد عادت إلى شخصية طارق بن زياد بين الواقع والخيال وكيف تناولتها بعض النصوص الأدبية. ومن النماذج التي درستها الباحثة نصوص لجرجي زيدان ومحمود تيمور والقاص المغربي مصطفى المسناوي. واختتمت الجلسة بعرض باللغة الفرنسية قدمه الأستاذ عبد الله بوكرومن، من الشعبة والكلية نفسها، حول ضرورة إضفاء دينامية جديدة على العلاقات الثقافية المغربية الإسبانية بغية تحقيق المزيد من التقريب بين البلدين لتجاوز الرهانات الجيوسياسية والعمل على تطوير المستقبل المشترك. وقد انطلق الباحث مما شكله الأندلس من نقطة انطلاق لعلاقات استمرت على مدى التاريخ، وربطها بحاضر التجاذب السياسي الذي من الطبيعي أن يطبع علاقات كل بلدين جارين، وقدم استشهادات لمؤرخين وسياسيين من البلدين.

أما الجلسة الأخيرة التي خصصت لمحور التفاعل اللغوي، والتي أدارها مصطفى أمادي من شعبة الإسبانية عين الشق، فألقيت فيها أربعة عروض: عرض قدمه الأستاذ مراد موهوب، من جامعة مولاي سليمان ببني ملال، حول النحو العربي الأندلسي بين فيه، انطلاقًا من نموذج ابن مضاء القرطبي، وقد بين فيه كيف أن النحو الأندلسي العربي كان يشكل مدرسة فريدة لها خصوصياتها التي تنفرد بها عن المدارس النحوية العربية الأخرى ويجدر بالمهتمين بالدرس النحوي العربي أن يوفوها قدرها من الاهتمام. وعرض قدمه فيصل الشرايبي، من شعبة اللغة العربية بعين الشق، بعنوان الأندلس الحرة ذكر فيه أن الأندلس لا ينبغي أن يسمى الفردوس المفقود كما جرت العادة بذلك بل هي فردوس موجود نعيشه عبر ما بقي لنا منه من أدب وثقافة وعلوم ومعالم تسامح وينبغي أن نرعاه بعلاقات طيبة مع الجارة إسبانيا. ونوه الأستاذ بالرعاية التي توليها إسبانيا للمخطوطات العربية المحفوظة في الخزانات الإسبانية وأشاد بالعدد الهائل من نسخ المخطوطات التي قدمت مؤخرا هبة من الحكومة الإسبانية للمكتبة

الوطنية المغربية. وفي عرضه بعنوان كلمات أمازيغية جوالة، سرد حسن بوتكى، من شعبة الإسبانية بالكلية، مجموعة من الكلمات الأمازيغية كانت متداولة في العربية الأندلسية ومنها ما مر إلى الإسبانية المعاصرة، وبين كيف أن الدراسات المعجمية حول أمازيغية الأندلسيين تحتاج إلى مزيد من البحث وأن قلة المصادر حولها تعود إلى كون الأمازيغ سرعان ما عربوا تقربا من الحكام العرب ومن الدين الإسلامي، كما أن منهم من عربوا بالمغرب قبل العبور إلى الضفة الأخرى، زد على ذلك أن الوثائق المتوفرة حولهم أغلبها كتبها العرب في الحواضر والمدن والمصادر التاريخية تبين ميول أمازيغ الأندلس إلى الاستقرار في المناطق الجبلية المعزولة. وعرض قدمه منجد مصطفى بهجت من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا وتوقف فيه، وهو المتخصص في الأدب الأندلس، عند التفاعل الحضاري في اللغة والأدب – وخاصة في الشعر الأندلسي والإسباني – بين الشرق والغرب عموما. وقد اختتم الأستاذ مداخلته بعدد من التوصيات المهمة تبنتها الندوة منها:

– ضرورة توظيف المعطيات الحديثة بالرجوع إلى المصادر والوثائق الغربية، والمصادر العربية في القضية الواحدة، لتحقيق النصوص وفق منهج علمي ولتوثيق الصلات ووجهات النظر بين الغرب والشرق.

– عدم الاستسلام لما يطبع أو ينشر من وثائق غير علمية لا ترقى إلى الاحتجاج بها.

– ضرورة تعاضد البحوث وتواترها في الاتجاه الصحيح الذي يؤدي إلى المزيد من التفاهم بين الشرق والغرب، بعيدا عن التعصب المقيت، ومنطق الغالب والمغلوب، أو القوي والضعيف، والتحلي بالروح العالية التي تتسامى على القيم المادية البحتة، التي تسيطر على العلاقات بين الدول في عصرنا الحديث، لتحقيق علاقات متميزة بين الشعوب.

– تحقيق الوئام بين الدائرة السياسية والعلمية، بحيث تستمد الدائرة السياسة طاقتها من قرينتها العلمية، وتحقق الانسجام في قراراتها مع المرجعية العلمية، وألا تكون بعيدة من الدائرة العلمية بأي حال من الأحوال كي لا تنحرف عن جادة الصواب.

– إن كثرة الدراسات التي كتبت في الجانب النظري، تشير إلى النقص، وتنبئ عن حاجتنا إلى المزيد من الدراسات التطبيقية، من خلال النصوص والوثائق المخطوطة، وما يزال الكثير منها بحاجة إلى التحقيق والنشر.

– ضرورة إذكاء روح التسامح التي هي السبيل للرقي والتقدم الإنساني. فالمرء عندنا ذو شخصيتين: الشخصية العصرية التي كوّنتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية، والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جمدت وتحجرت بفعل الأجداد.

– حاجتنا إلى مزيد من الدراسات في الجوانب التي أغفلت، ومنها التأثير الغربي للآداب والفنون على الأدب العربي والفنون، في العصور الوسيطة، وإن كان بحدود ضيقة.

وقد شهدت أعمال الندوة متابعة من طرف جمهور نوعي تبين اهتمامه بمحاور الندوة من خلال النقاشات التي أعقبت كل جلسة والتي كانت تزيد من تعميق الإشكالات التي طرحها العروض المقدمة. كما واكبت العروض ترجمة فورية من العربية إلى الإسبانية ومن الإسبانية إلى العربية قام بها طلبة الماجستير الترجمة والتواصل بالإسبانية بالكلية أشاد كل الحاضرين – إسبانيين ومغاربة – بجودتها لأنها مكنتهم من تتبع كل العروض دون الاصطدام بحاجز اللغة.

وختمت لقاءات وأعمال المؤتمر بأمسية موسيقية في يوم 5/12 لأستاذ الموسيقى الأندلسية يونس العمري، مع الفرقة الأندلسية قدمت في معهد ثيربانتيس الإسباني، طافت بنا بأيام زرياب معلم الناس المروءة كما وصفه المقري في نفح الطيب.